الفصل الرابع

نوافذ على القلب

obeikandl.com

obeikandl.com

عجوز سراييفو وبيغوفيتش

لن أنسى مشهد العجوز البوسنية وهي تقف أمام أنقاض سوق سراييفو وهي تبيع الورد. هناك مشاهد تمر على الإنسان فتنحفر داخل الذاكرة ، وتظل رفيقاً له بقية العمر، من بين هذه المشاهد مشهد تلك العجوز، كان ذلك في فبراير أو مارس عام ١٩٩٥، ولم يكن قد مر على مجزرة سوق سراييفو الشهيرة والتي راح ضحيتها عشرات من البوسنيين البسطاء سوى أيام قليلة، كنت قد وصلت إلى سراييفو على متن طائرة عسكرية تابعة للأمم المتحدة، وكانت حرب البوسنة في أعنف أيامها، شاهدت الكثير هناك، وتحتفظ ذاكرتي بالعديد من الصور المشابهة في حضورها في ذاكرتي لصورة تلك العجوز، ولكن مشهد السيدة العجوز التي تبيع الورد تحت أصوات رصاص القناصة، وعلى أرض لم تجف دماء الضحايا عليها بعد، هذا المشهد هو الرغبة الحقيقية في الحياة، وهو تعبير أيضاً عن أسلوب خاص في الحياة.

دروس عدة تعلمتها خلال الأيام التي قضيتها في البوسنة، دروس في الحياة، وفي الموت، وفي السياسة والدين، ليس هنا مجال سردها، ولكن من بين ما توقفت أمامه مسألتين هامتين تتعلقان بالمسلمين الذين كانوا هناك، أقصد من اصطلح على تسميتهم «المجاهدون العرب»، والمسلمون الذين لا يزالون هناك، وأقصد بهم المسلمين من أهل البوسنة أنفسهم، أي البوسنيين. التقيت هناك عرباً كانوا قد تركوا ــ أو فروا ــ من أفغانستان، ورأوا في البوسنة موقعاً جديداً لهم يمارسون فيه نشاطهم، بعضه نشاط دعوي أو إنساني، والبعض الآخر في مجال المعركة، ولمست في طبائع من التقيت بهم تغيراً ملحوظاً بينهم وبين أقرانهم في بلادنا. وأذكر وقتها أنني ربطت بين هذه الطبائع الأكثر ليونة وتسامحاً وتفتحاً وبين طبيعة بلاد البوسنة، فهذه البلاد الجديدة فرضت عليهم نوعاً من التغيير كان سهلاً رؤيته. وعلى الرغم من

ذلك فإن اتفاق دايتون الذي وقع في فترة لاحقة كان من نتائجه المباشرة إخراج أولئك المجاهدين من البوسنة، وكان ذلك أمراً طبيعياً ومتوقعاً سواء من القيادة البوسنية في ذلك الوقت أو من خلال طبائع البلاد ومسلميها الذين هم بالتأكيد مختلفون في ثقافتهم عن المسلمين في بلادنا، فهم مسلمون أوروبيون، أو أوروبيون يدينون بالإسلام، وهذا هو ما لم يدركه العديد من المهتمين بالعمل الاسلامي في عالمنا العربي والإسلامي في تلك الفترة، إذ اعتبروا أن القضية البوسنية هي قضية دينية للدفاع عن الاسلام، وهو الأمر الذي لمست أنه ليس كل الحقيقة حتى في نظر أهل البوسنة من المسلمين، والذين كانت قضيتهم قضية وجود كهوية عرقية وليس قضية دينية، خاصة أن معظمهم لم يكن قد اكتشف بعد أبعاد هويته الإسلامية، وبالتالي رأيت هناك أوروبيين مسلمين يبحثون عن الحق في العيش.

من بين التجارب التي مررت بها كانت تجربة المرور عبر النفق الشهير الذي كان الممر الوحيد الذي يربط سراييفو المحاصرة ببقية أجزاء البوسنة، وكان عبارة عن نفق يمر تحت الأرض بالقرب من منطقة المطار المكشوفة التي كان يسيطر عليها الصرب ورصاص القناصة لا يتوقف من فوقه، طوله يقل قليلاً عن الكيلومتر، وكان يستخدم في نقل الإمدادات إلى المدينة المحاصرة عبر عربات تمر فوق قضبان حديدية. مررت عبر هذا النفق ــ ليس بصفتي الصحفية ولكن كمرافق لأحد المجاهدين العرب ــ وصوت رصاص القناصة لم يتوقف، وعند الطرف الآخر وجدت حالة من القلق الأمني بين مقاتلي البوسنة، وعلمت أن هناك شخصية مهمة تمر عبر النفق الآن وهم في حالة قلق لتأمينها. وبعد قليل خرجت عربة من ظلام النفق يدفعها بعض المقاتلين البوسنيين، وكان على متنها علي عزت بيغوفيتش، الذي استقبله البوسنيون العاديون بالتصفيق والهتاف والأمل.. وعندما ودع العالم الرئيس البوسني المسلم لشعب البوسنة الأوروبي المسلم. وجدت أن ذاكرتي مازالت تحفظ بيغوفيتش فوق العربة والعجوز بائعة الورد في سوق سراييفو.

عبد الناصر.. الحاضر الغائب

«فلتتوقف المدافع وليتوقف أزيز الطائرات، فمن كنا نريده أن يسمعها لم يعد هناك» نسبت هذه العبارة إلى الرئيس الاميركي الأسبق ريتشارد نيكسون يوم وفاة عبد الناصر.

كانت هذه إحدى العبارات الأثيرة التي كنا نرددها باعتزاز يوم كنا طلبة في الجامعة، وقتها كانت الحركة الطلابية «السياسية» في نزعها الأخير في نهاية السبعينيات. كانت هذه العبارة المنسوبة إلى الأعداء ــ وقتها ــ بمثابة شهادة تأكيد لصحة ما نؤمن به، وما زالت هذه عادتنا حتى الآن، نبحث عن الآخر ليشهد لنا، ويحمينا، ويصلحنا، و«يضربنا» إن لزم الأمر.

تمر اليوم ثلاثة وثلاثون عاماً على رحيل جمال عبد الناصر، رغم أن الرقم غير مغر بتناول الذكرى، حيث إنها ليست يوبيلاً فضياً أو ذهبياً إلا أن عبد الناصر يعود إلى الواجهة في معظم الأوقات الصعبة التي يمر بها العرب، فرادى أو مجتمعين. ويتم استدعاء عبد الناصر من الذاكرة من كلا الفريقين، من يريد أن يرجمه، ومن يريد أن يرْفَعه عالياً في السماء.

عند الأزمة يبدأ البحث في أحد اتجاهين، اتجاه عمن يعتقد أنه السبب في الأزمة، واتجاه آخر يستحضر المدد بمن يعتقد أنه كان قادراً على تجاوزها، وهذا هو ــ في رأيي ــ تفسير عودة عبد الناصر إلى الساحة من جديد. عندما تظلم السماء يؤكد الراجمون لعبد الناصر بأن السماء بدأت إظلامها منذ بدأ انقلابه الذي سماه ثورة، فضاعت الحقوق وضاعت الآمال، وتبدد الحلم. ويستحضره الباحثون عن المخلص ــ بشد اللام ــ بأنه لو كان عبد الناصر حياً لكان قادراً على قيادة الأمة للخروج من النفق المظلم، ولو

كان حاضراً لما مارس ما يمارسه حكام قرروا أن يسلكوا الطريق المعاكس لأحلام شعوبهم. وليس غريباً أن يحمل المتظاهرون الفقراء في أماكن عدة صور عبد الناصر إذا ما قرروا أو جرأوا أن يخرجوا ليعلنوا رفضهم لأحوالهم وأحوال حكامهم.

واليوم تمر الأمة ــ إذا ما ظلت هناك أمة ــ بأزمة، هي بالفعل أزمة وجود وبقاء ــ ليس بديله الفناء ــ ولكن بديله ضياع الهوية، والبقاء على رصيف قطار لن يأتي قط.

ولأنها أزمة يعود عبد الناصر ليطل مرة أخرى، مرة ملعوناً باعتباره سبب البلاء، ويصل الأمر إلى حد اعتبار صدام حسين وبن لادن امتدادا له، وهو في ظني افتراء عظيم، كما يطل أيضاً باعتباره الذي كان قادراً على قيادة الأمة لتجاوز الأزمة، أو لإعطاء الإحساس بكرامة باتت في مهب الريح، إن لم تكن قد ذهبت مع الريح.

ليس في السياسة، ولا في الحياة هذا القطع الفاصل بين الأبيض والأسود، ليس البشر أخياراً أو أشراراً بشكل مطلق، وكذلك القادة ليسوا شياطين أو ملائكة، الخطأ الكبير الذي نقع فيه هو إطلاقنا لأحكام ونحن نعيش ظروفاً مختلفة اليوم على أشخاص عاشوا وأحداث وقعت في ظروف مغايرة تماماً، التقييم الموضوعي للأحداث ينبغي أن يكون وفقاً لمعايير الوقت الذي وقعت فيه.

يظل عبد الناصر أهم شخصية سياسية عربية ظهرت خلال القرن الماضي، وتظل ثورة يوليو ــ التي بدأت «حركة مباركة» ــ هي أهم حدث اجتماعي سياسي شهدته مصر، ويظل دور الثورة عربياً وأفريقياً وعالمياً هو أحد أهم ملامح التاريخ المعاصر. هذا الإقرار بأهمية الشخص والحدث لاينبغي أن يقف أمامنا حائلاً دون مناقشة وقائع هذا الحدث وتطوراته وتداخلاته، وفي ذات الوقت، رفضنا للشخص واعتراضنا على الحدث لا ينبغي أن يكون دافعاً

إلى التهوين أو الامتهان لقيادة أو لجزء من تاريخ هذه الأمة سواء رضي الراجمون أو رفضوا.

في مرحلة الشباب المبكرة كنت أرى الثورة بلا أخطاء، وأرى عبد الناصر بلا خطايا، كنت أبحث في الآراء المختلفة لأبرئ الثورة وعبد الناصر من أي نقيصة، واستخدمت واستخدمنا في ذلك تعبيرات حفظناها ورددناها دائماً، مثل «الثورة تأكل أبناءها» و«أعداء الثورة» وغيرها من التعبيرات التي كانت بمثابة حماية لنا ولأذهاننا من أن يلوث ثوب الثورة، أو عبد الناصر أي من السلبيات التي كانت تحاول أن تتسلل إلى عقولنا، كانت الثورة كما نراها بلا أخطاء وعبد الناصر بلا خطايا.

واليوم، وبعد مرور هذه الأعوام، يبدو أن عقولنا تكون أكثر استعداداً لتقبل النظرة الواقعية للأحداث، والقدرة الأعلى على تقييم الأشخاص، اليوم أصل شخصياً إلى قناعة تقول انه لا يوجد مبرر واحد يمكن أن يبيح امتهان كرامة انسان أو حريته، وأقولإن القائد مسؤول عن كامل مرحلته برجالها وإيجابياتها وتجاوزاتها، وهذا لا يقلل من قدره وقيمته، وأقول إن تعليم الشعوب قيادة نفسها أصعب كثيراً من قيادة هذه الشعوب، وهذه النقطة الأخيرة هي الخطأ الأكبر في ظني الذي وقع فيه عبد الناصر، قد يكون لأسباب وظروف داخلية وإقليمية، عالمية، أو حتى لأسباب خاصة بمن كانوا حوله، ولكن يظل هذا هو الخطأ. فقد كان جمال عبد الناصر زعيماً وطنياً صادقاً، ولكن القيمة كانت تكتمل لو كان زعيماً «ديمقراطيا» وطنياً صادقاً.

رحم الله جمال عبد الناصر الذي كان ابناً باراً بحق لهذا الوطن، والذي يظل استحضاره في لحظات الأزمة دليلا على قيمته التي باتت حقيقة لن تتغير.

* * * *

سـن الرشـد

فيلم «الريشات الأربع» يتحدث عن مفاهيم إنسانية مختلفة أفرزتها لحظة هزيمة الجيش البريطاني المدعوم بقوات مصرية في حملته على السودان في نهاية القرن التاسع عشر أمام قوات المهدي. أتتني رسالة من الصديق مدكور ثابت رئيس الرقابة في مصر بالاشتراك في مجلس شورى النقاد لتقرير مصير الفيلم للعرض من عدمه، حيث أن أحد الرقباء يعتقد «وفقاً لتقريره» في عدم صلاحية عرض الفيلم أنه يتحدث عن الحملة البريطانية على السودان في الوقت الذي يشارك فيه الجيش البريطاني في غزو دولة عربية هي العراق.

حضرت العرض ولم أجد فيه مايجيز مجرد التفكير في عدم عرضه، وإن كنت توقفت طويلاً أمام المناقشة التالية لعرض الفيلم لبعض نقاد وكتاب السينما، فقد فوجئت ببعض المواقف التي بدت وكأنها لا ترضى بموقف الوصاية على قول الناس بديلاً، وكأن المتلقين يعانون تأخراً عقلياً ، أو عدم قدرة على فهم المسائل الكبيرة إلا بعد إقرار الأوصياء على عقولهم بذلك.

وخرج أحد الزملاء منتقداً الاتجاه الداعي لعدم فرض أي شكل من أشكال الوصاية على عقول الناس ــ وكنت ضمن هذا الاتجاه ــ فبرر الناقد السينمائي موقفه: «كنت في ما سبق متفقاً مع ذلك الطرح ــ يقصد عدم فرض وصاية على كل الناس ــ ولكن بعد غزو العراق وفرض الأميركان الرقابة على الأخبار فأنا مع الرقابة».

الغريب في هذا المنطق أنه يلوي الأمور والأحداث ليبرر موقفاً معادياً لحق الإنسان في أن يقرر بنفسه، ويكرس وضعاً يمارس فيه هو ومن يمثلهم دور الوصاية على عقول الناس.

الجانب الإيجابي هو أن مثل هذه الأصوات لم تمثل الأغلبية، فقد تم إقرار عرض الفيلم من دون تدخل وفوراً بما يشبه الإجماع. ولكن مثل هذه الأصوات تشكل بالفعل خطراً على المستقبل، ذلك المستقبل الذي لن يكون مشرقاً إلا بالمزيد من الاقتناع بأهمية حرية التفكير والفكر، وبرفض مفهوم الوصاية على عقول الشعوب، والاقتناع بأن هذه الشعوب قد وصلت الآن إلى سن الرشد.

في ذات الإطار ، فإن المحاولات التي بدأت تظهر أخيراً في توسيع دور الأزهر الرقابي علي الأعمال الأدبية والإبداعية تصب في ذات الاتجاه، اتجاه تكريس سلطة الوصاية على عقول الناس، دور الأزهر الآن في مثل هذه الأمور ينبغي أن يتوقف عند دور الاستشارة، وليس دور الرقيب صاحب القرار، سواء في ما يتعلق بالأعمال الأدبية أو الفنية. مانطالب به هو تخفيف مانعانيه من قيود سياسية ولسنا في حاجة إلى زيادة القيود تحت أي مسمى.

اعتاد الأزهر خلال الفترة الماضية أن يمارس دوراً استشارياً ولكن وفقاً لما بدأ يظهر من خلال الممارسة في الأعوام الأخيرة فإن هذا الدور يحاول أن يتجاوز هذا الدور الاستشاري إلى دور رقابي عملي يملك أن يمنع أو يجيز، ووصل الأمر إلى حدود التدخل فيمن يحق له الظهور على شاشة التليفزيون ليمارس الدعوة أو الفتوى.

ومع تحفظي الشديد على من يطلق عليهم «الدعاة الجدد»، فإنني أجد أن ازدياد المساحة التي يمارس فيها الأزهر دوره مؤشر غير إيجابي ينذر بازدياد مساحة الوصاية على حساب مساحة حرية الفكر.. نرحب بكل الأدوار في الحدود التي تدفع هذا المجتمع للأمام.

* * * *

أيام السادات وأسئلة حائرة

خمس سنوات من الإعداد، ثلاث ساعات من العرض على الشاشة الفضية، ٤ ملايين جنيه مصري في الأسبوع الأول، أوسمة فنون من الطبقة الأولى والثانية للمشاركين في الفيلم، طوابير من المصريين من مختلف الأعمار تصطف أمام دور السينما لمشاهدة الفيلم. حالة من الجدل بدأت ولن تنتهي قريباً حول الشخصية المحورية. هذه باختصار أهم ملامح الحالة المحيطة بفيلم «أيام السادات» الذي ينتشر عبر دور السينما في كل بر مصر.

نجم الفيلم يحيي حالة الجدل من جديد حول شخصية الرئيس المصري الراحل أنور السادات الذي قاد آخر حروب العرب التي تحقق فيها نصر أكتوبر عام ١٩٧٣، واغتيل في التاريخ نفسه وسط جيشه عام ١٩٨١. ويأتي هذا الفيلم في مرحلة يمر فيها الصراع العربي الإسرائيلي ــ إذا ما كان تعبير صراع مازال صالحاً للاستخدام ــ بمرحلة حاسمة، تبدو فيها الأمور مشتعلة، بل تكاد تنذر بنذر حرب، ولكن في الوقت نفسه تعتبر معظم الأنظمة العربية ــ إن لم يكن جميعها ــ خيار الحرب مستبعدا بعدما استقر الحال على السلام كخيار استراتيجي. وهنا يكمن الصدى الذي يمكن أن يتركه فيلم «أيام السادات» هذه الأيام، حيث يعتقد المؤيدون للسادات أن هذا العمل في هذا التوقيت يأتي ليؤكد بعد نظر الرئيس الراحل الذي استطاع أن يسبق العرب جميعاً في فهم المعادلة، وبالتالي استبعد التطورات واختار زيارة القدس كبداية لطريق السلام.

في المقابل يرى المنتقدون أن السادات الذي قدمه الفيلم يختلف عن السادات الحقيقي، وأن كل ما حدث في الفيلم هو محاولة لتبرئة ساحة السادات من كل ما لصق به من اتهامات بدأت منذ تعاونه مع الألمان ضد الإنجليز، ثم علاقته بالقصر، ثم غيابه المتعمد ليلة تنفيذ ثورة يوليو، كما أنه

ـــ أي الفيلم ـــ قدمه كمخطط وحيد لحرب أكتوبر، وقدم زيارته للقدس واختياره للسلام بدون أن يقدم وجهة النظر الأخرى، وبدا الأمر وكأنه لاقى إجماعاً كان في الحقيقة غائباً في تلك الفترة.

الفيلم الذي قاربت مدته الساعات الثلاث نجح ـــ في ما أظن ـــ في مسألة مهمة جداً هي تقديم شخصية السادات كإنسان قريب من المشاهدين، أي أنه نجح في «أنسنة السادات» إذا صح التعبير ـــ فبدا شخصية مرحة يروي النكات، يجيد الكذب والحيل ليخرج من المأزق تلو المأزق بشكل يلقى قبول المشاهدين، رومانسيا يحب زوجته الثانية ويغني لها تحت سفح الهرم. باختصار فان الجانب الإنساني من السادات نجح في أن يغزو قلوب المشاهدين للفيلم بحيث خرج أكثر المعادين للسادات وفي نفوسهم قدر ما من الإعجاب بهذا الجانب الإنساني فيه حتى ولو لم يصرحوا بذلك، وقد نجح أحمد زكي وحده في تقمص شخصية السادات بشكل شبه مطابق، ولكن على الجانب الآخر، فإن الفيلم لم يكن موضوعياً في تقديم الأبعاد السياسية والاجتماعية السائدة تلك الفترة، وبدا الفيلم منحازاً بلا تحفظ للسادات، شخصية وسياسة، وكان نقلاً أميناً لكتابي «البحث عن الذات» للسادات نفسه، و«امرأة من مصر» لزوجته السيدة جيهان السادات. وغابت عن الفيلم محطات مهمة في تلك الفترة، وحتى تلك التي عالجها لم تكن المعالجة بشكل متكامل.

لعل أهم ما يطرحه الفيلم من جدل من بين الكثير مما يطرحه، هل أصاب السادات عندما اختار أسلوب الصدمة في زيارة القدس؟ وهل أخطأ العرب عندما رفضوا الانضمام له في تلك الفترة وأضاعوا الفرصة؟ وهل كان سيسمح لهم بالانضمام إلى مسيرة السلام لو كانوا قد قرروا ذلك؟

أسئلة كثيرة كل ما فعله «أيام السادات» أنه أثارها من جديد، ولن تكون هناك إجابة حاسمة.

حفلات الضباع

يحضرني أحد مشاهد فيلم الكارتون «الملك الأسد» (Lion king) مرات عديدة، خاصة عندما نمارس ــ أو يمارس بعضنا ــ سلوكاً لا يختلف كثيراً عما يجري في هذا المشهد، والذي يمثل الضباع عندما تجتمع على جثة لأحد حيوانات الغابة تمزق فيها، وتتصارع فيما بينها على قطع اللحم الميتة، ويملأ تعبيرات الوجه قبح شديد نجح منفذو الفيلم في إبرازه، ومن ذلك الذيل المتروي بين الساقين الخلفيتين لهذه الضباع.

مع الأسف الشديد يتقمص ــ أو يتقمص جزء منا ــ خاصة في مجال الإعلام العربي هذه الشخصية «الضباعية» عندما يتناول قضية أو حادثة ويكون طرفها أو أطرافها شخصيات عامة ومعروفة ــ وحتى غير معروفة في بعض الأحيان. وكان حادث الجريمة التي شهدتها القاهرة وراحت ضحيتها الفنانة ذكرى وثلاثة آخرون منهم زوجها رجل الأعمال الذي نفذ الجريمة بأسلحته ثم انتحر، هذا الحادث فتح الشهية «الضباعية» فينا، في مجالسنا ــ وهذا لا يهم كثيراً ــ وفي إعلامنا، وهذا هو ما يهمنا، فقد تحول جزء غير صغير منا في عدد غير صغير من وسائلنا الإعلامية إلى ضباع صغيرة وكبيرة، وانتهكت حرمات، واخترعت حكايات، وسمعنا أموراً لها العجب، تناقضت وتقاطعت، والتقت واختلفت، والنتيجة واحدة، حفل كبير شارك فيه الكثيرون في نهش جثث لا لشيء إلا من أجل التسلية.

لست أعارض إطلاقاً الاهتمام بمتابعة مثل هذه الجريمة التي يندر أن تمر بنا في عمرنا، ولا نشاهدها إلا من خلال أفلام، وفي مجتمعات غير التي نعيش فيها، وهي جريمة تمتلك عناصر تشويق وإثارة لا يمكن تجاهلها أو عدم التركيز عليها، ولكن ما أعترض عليه هنا هي تلك الحالة من التشفي أحياناً،

ومن تصفية الحسابات أحياناً أخرى، ومن الرغبة في الظهور والصعود على درجات من جثث الموتى، وهي مسألة مارسها معظم المحيطين بالجاني والضحايا، واستغلها وسعد بها العديد من وسائل الاعلام.

أثبت الحادث الأخير أن معالجتنا لقضايا عديدة يشوبها الانفعال، وبعض الرغبات الانسانية السلبية المكبوتة، وآخر ما بحثنا فيه هو أمران، الحقيقة المجردة، والحفاظ على حرمة أموات .

غابت الموضوعية، وحضرت أغراض شخصية أو نوازع إنسانية، واستمعنا إلى قصص عديدة متناقضة والكثير منها مقزز.

أظهرت هذه الحالة عدداً من الأسئلة المهمة الجديرة بالطرح مثل حدود حرية حيازة السلاح وأساليب استثمار أموال البنوك، وأمراض التجاعيد وأمراض أخرى التوقف أمامها ضروري لدراستها، ولكن شغلتنا الجثث والحكايات، أو شُغلنا بالجثث وحكاياتها.

ما حدث جريمة بشعة بكل المعايير، والجاني فيها وضحاياه ليسوا ملائكة، ولكن أيضاً، من شاركوا في حفل نهش الجثث بعد الجريمة هم أيضاً بالتأكيد ليسوا ملائكة.

المشهد التالي للجريمة إذا ما توقفنا ونظرنا إليه عن بعد لن يكون مشهداً مرضياً وسنكتشف أنه لم يكن بعيداً عن ذلك المشهد الذي ذكرته في البداية، مشهد الضباع في «الملك الأسد».

وأحيلكم في النهاية إلى مشهد آخر في ذات الفيلم، وهو المشهد الذي تسيطر فيه الضباع على حكم الغابة، عندها تذبل الأشجار، وتموت الضحكة والفرحة في عيون سكان الغابة، ويسود قبح الدمار محل جمال الحياة.

(١)

بعد (هاي) و(سوا)..

مـــاذا نحن فاعلون؟

تبدو الساحة الثقافية والـسياسية والعربيـة وكأنهـا تحولـت إلى سـاحة للحرب الأهلية بين مثقفي الوطن الواحد، وكأنما نجح أسامة بـن لادن، ومعـه الولايات المتحدة الأميركية في شق الساحة الفكرية العربيـة إلى «فـسطاطين» متعاديين متناطحين، والخشية كلها أن يؤدي هذا التنـاطح والعـداء إلى نفـي مصلحة الأمة.

لا أميل إلى نظرية المؤامرة في تفسير كـل الأمـور، ولا أميـل أيـضاً إلى مواقف التخوين والتشكيك في الولاء، ولكن فيما يبدو فإن هذه هـي الحالـة السائدة في المعترك الثقافي والسياسي، بعد ما مر بنا من أحداث منـذ سـقوط البرجين، والحرب الأفغانية، وحرب العراق، والقرار الأميركي بإدارة شـؤون المنطقة، وهي الأحداث التي كشفت من المستور الكـثير، ووضـعت أطرافـاً وأفكاراً كثيرة على المحك.

في ظل هذه الأجواء، يدور الآن جدل بين أطراف مختلفـة حـول حـدود القرار الأميركي بإدارة شؤون المنطقة في شقة الإعلامي، وذلـك مـن خـلال إذاعات ومحطات تلفزيون ومطبوعات مكشوفة وغير مكشوفة، يتم من خلالهـا الترويج للفكر الجديد، وهي المشروعات التي شهدت، حتى الآن، محطة إذاعـة

«سوا» ومجلة «هاي» الموجهة للشباب، وكلاهما باللغة العربية، وتلا ذلك اتهامات لمشروعات إعلامية جديدة بأنها تلك «غير المكشوفة» من الإدارة الأميركية الجديدة لشؤون العقل العربي. وقد استحضر الأستاذ فهمي هويدي في مقال له التجربة الأميركية في حربها الثقافية بعد الحرب العالمية الثانية، والمتمثلة فيما أطلق عليه «الاتحاد الدولي للحرية الثقافية». وقد يكون من المناسب استحضار تفاصيل تلك التجربة قبل طرح السؤال: هل ما يحدث الآن هو شكل من أشكال إعادة التاريخ لنفسه مرة أخرى؟

عندما بدأت الحرب الباردة عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، أطلقت الولايات المتحدة مشروع مارشال الذي قامت فلسفته على تقديم مساعدات اقتصادية للدول الأوروبية لئلا تسقط في يد الأحزاب الشيوعية، ثم أعلن الرئيس الأميركي ترومان عام ١٩٤٩، برنامج النقطة الرابعة القائم على كسب الشعوب بالإصلاح الاقتصادي، وتقوية الأمم المعادية للشيوعية ودعمها اقتصادياً.

وتولت المخابرات المركزية الأميركية (CIA) تكوين واجهة ثقافية تحارب الشيوعية بالوسائل الثقافية، واستخدمت في ذلك المنشقين على الشيوعية، وكان الهدف الترويج للثقافة والذوق الأميركي في الفن والطعام والملابس والغناء. وأنشئت عام ١٩٥٠ منظمة «كونغرس الحرية الثقافية» التي تحولت عام ١٩٦٧ إلى «الاتحاد الدولي للحرية الثقافية»، وكان لها فروع في ٣٥ دولة وأصدرت أكثر من ٢٠ مجلة.

هذه باختصار حكاية «الاتحاد» والآن السؤال: هل نحن نعيش أجواء مشابهة؟ هل نحن عرضة لتكرار تجربة دور مثل هذا الاتحاد؟ الأمر الذي أراه أن هناك دوراً وحضوراً أميركياً متعاظماً وآخذاً في التزايد في الحضور في حياتنا، ليس فقط الثقافية، ولكن في كل تفاصيل حياتنا. هذا أمر نرفضه، ولكننا لا نملك أن نوقفه أو نحد من أثره وكل من يصطف في «فسطاط» أمام

الآخر. وفي هذا الإطار لا بد من البحث عن صيغة حوار مختلفة بديلاً عن الاتهامات بالطالبانيه ــ نسبة إلى طالبان ــ أو الأميركانية.

المخاوف التي تنتابنا من المحاولات الأميركية لفرض رؤاها من خلال «وسطاء ممولين» هي مخاوف مشروعة، والرد عليها باتهام من تنتابه المخاوف بأنه عدو لليبرالية هو اتهام «كيدي» ، ولكن طرح السؤال حول مدى احتياج أميركا إلى «وكلاء» يقومون عنها بدور ما ــ وهي التي أصبحت «جارا» في ــ المنطقة ــ هو تساؤل منطقي، خاصة بعد سيطرة الإحساس الأميركي بأنهم لم يعودوا في حاجة إلى أحد بعد دخولهم العراق، وثبت أنهم لم يعودوا في حاجة إلى من يحارب عنهم حروبهم بالوكالة. إن طرح مثل هذا الرأي هو أيضاً منطقي، ويحمل من عناصر الحقيقة والإقناع الكثير. ولكن يطرح تساؤل في المقابل ــ هو أيضاً تساؤل مشروع ــ أن ما ينطبق على التدخل العسكري والتغيير بالقوة لا يمكن تطبيقه على التدخل الثقافي والفكري.

أظن أن التساؤلات والمخاوف هي مسألة مشروعة تماماً، والحوار حولها وحول حدود الرغبة الأميركية في التدخل هو مسألة ملحة، وفض الاشتباك بين «الفسطاطين» مسألة مهمة للبدء في حوار وطني، والبحث عن مخرج وطني للخروج من المأزق الذي تعيشه الأمة.

من حق الأميركيين تماماً أن يديروا معاركهم من وجهة نظرهم، ولا يلومهم عاقل إن فكروا ونفذوا أية خطط تتيح لهم تحقيق أهدافهم الوطنية ــ من وجهة نظرهم ــ حتى لو تعارض ذلك مع أهداف ومصالح الآخرين. هؤلاء الآخرون ــ الذين هم نحن ــ علينا أن ندير شؤوننا من منطلق مصالحنا ــ إن عرفناها ــ فإذا كان الأميركيون قد خرجوا علينا بسوا وهاي وغيرها من مشروعات إعلامية، فماذا فعلنا نحن؟

(٢)

اهتمت وسائل الإعلام

«أبرزت وسائل الإعلام العالمية»، «اهتمت وسائل الإعلام الغربية والعالمية»، «نقلت وكالات الأنباء العالمية».. كل هذه مرادفات اعتدنا أن نراها في وسائل الإعلام «المحلية». هكذا فإنه دائماً نلحظ ونكتشف ونسعد باهتمام وسائل الاعلام العالمية والغربية ــ خاصة الأميركية ــ بالتصريحات التاريخية التي يصرح بها دائماً كل سياسيينا وزعمائنا، والآن أضيف إلى القائمة كبار صحفيينا. فلم يعد الأمر يقتصر على مجرد الإشارة في اليوم التالي مباشرة لأي خطاب أو كلمة أو تصريح أو زيارة لسياسي من سياسيينا العرب، إلى اهتمام وسائل الإعلام العالمية بهذا الحدث الذي يتكرر دائماً، ولكن الأمر تخطى ذلك إلى كبار الصحفيين والكتاب، خاصة الرؤساء منهم ــ أي رؤساء المؤسسات ــ فبمجرد أن يكتب أحدهم مقالاً أو رأياً، وتنقل إحدى مكاتب وكالات الأنباء تلخيصاً لهذا الرأي في إطار قصة تتعلق بموضوع يرتبط بما أدلى برأيه فيه، حتى تطالعنا نفس الصحيفة في اليوم التالي بخبر في صفحتها الأولى تزف إلينا فيه البشرى بأن وكالات الأنباء العالمية اهتمت بمقال الكاتب الرئيسي، ونقلت عنه فقرات مطولة، ويعيد الخبر تذكيرنا بمقال الأمس الذي كان محور حديث العالم كما يحاولون إيهامنا.

أعتقد ــ وأشك أن أكون مخطئاً ــ أن هذه النوعية من الأخبار التي تصدمنا على شاشات التلفزيون، أو التي تواجهنا على الصفحات الأولى من صحف الصباح ــ والمساء أيضا ــ في اليوم التالي لأي تصريح أو خطاب أو

زيارة، والتي تؤكد لنا اهتمام العالم بما يقوله سياسيونا، إنما هي هدف في الاتجاه الخاطئ، وأشك كثيراً ــ وأعتقد أنني مصيب ــ أنه لا يوجد من المتلقين البسطاء ــ أمثالي ــ من يهتم بمتابعة أو قراءة مثل هذه الأنباء «المهمة». هذه النوعية من الاهتمام المفتعل لا تحدث إلا أثراً عكسياً لدى البسطاء أمثالي.

نحن لسنا في حاجة إلى البحث عن شهادات من آخرين للتأكيد على أهمية ما نقول أو نفعل، الأهمية تحضر من داخل الفعل وأثره، والاهتمام يتولد من مصداقية ما يقوله زعماء وكتاب لدى المتلقين الأساسيين وهم الناس المحكومون أو القراء.

محاولة البحث عن شهادة من الآخر بأهمية ما نفعل أو نقول تقلل من قيمة ذلك، وأظن أن هذا السلوك هو ميراث إعلامي قديم، قد يكون قديماً قدم اللغة العربية ذاتها، ومع اتساع وتطور وسائل الإعلام زاد أثرها وحضورها.

البحث بملقاط عن صحيفة مجهولة أو إذاعة محلية نقلت أو اهتمت أو أبرزت أياً مما نفعل أو نقول، ثم تقديمه لنا على أنه حضور وتأثير، هو أمر بات من السلوكيات التي أظن أنها مرفوضة ــ ومن يختلف في هذا الرأي معي أرجو إبلاغي على عنوان البريد الإلكتروني ــ بل باتت تحدث أثراً عكسياً. وبدلاً من أن يتوقف الزملاء الكبار من الصحفيين الرؤساء ويحاولون تصحيح هذا الوضع، يبدو أنهم استمتعوا أكثر بأن يتقمصوا هم أيضاً الدور، فبات كل ما يقولونه يقع في دائرة اهتمام الإعلام العالمي والغربي.

لا أتوقع أن تنقل أي من وسائل الإعلام العالمي، والغربي أو الأميركي، أي جزء من هذا المقال.

(٣)

الجمهور عايز كده

في مرحلة ليست بالبعيدة، سادت السينما المصرية حالة من التراجع الحاد، وسيطر على سوقها ما اصطلح على تسميته بأفلام المقاولات. هذه النوعية من الأفلام والأعمال الفنية بشكل عام كان المبرر لها من وجهة نظر أصحابها أحد أمرين، إما «الجمهور عايز كده»، وبالتالي فإن دور المبدع أو الفنان ان جاز إطلاق هذه التسمية عليه هو البحث عن رغبات الجمهور ونزواته ومحاولة إشباعها، والمبرر الآخر بدا مغايراً ومعاكساً للتبرير الأول، وهو سيطرة معايير السوق الخليجي على المنتج الفني، وبالتالي تقديم أعمال يحيط بها من المحاذير والمحددات أكثر من الحاجة المتاحة للإبداع، وبالتالي تكون النتيجة إنتاجاً لا يحمل من الإبداع قيمته. هذه الحالة من التراجع لم تبدأ في التحسن النسبي إلا عندما تخلص المبدعون، أو نفر قليل منهم، من هذين المبررين، وهذا هو الضمان الوحيد لأي نهضة حقيقية، عدم التمسح في رغبات ونزوات الجمهور، وإقامة مساحة أوسع للإبداع والتفكير في حرية حقيقية.

بتطبيق النموذج الفني السابق على الحالة الإعلامية العربية التي عشناها خلال الأعوام الأخيرة نكتشف أن هناك حالة من سيطرة مفهوم «الجمهور عايز كده» على معظم وسائل الإعلام العربية ــ خاصة التلفزيونية منها ــ وينسحب هذا ليس فقط على محطات التلفزيون والقائمين عليها بل يمتد إلى نجوم المرحلة التلفزيونيين من السياسيين والمحللين والمعلقين، وأصبح كل من

هؤلاء النجوم الجدد قادراً على ضبط موجته وفقاً لطبيعة الجمهور المستهدف، فأصبحت لغة خطابه في «الجزيرة» مغايرة نسبياً لتوجهاته في «العربية»، ولن يمانع في أن يتبدل أو يتغير قليلاً ليتناسب مع جمهور الفضائية المصرية أو السودانية أو الموريتانية، وبالتأكيد فإن اللغة والتوجه سوف يكونان مختلفين تماماً إذا ما كان الحوار مع «سكاي نيوز» أو «سي إن إن». وفي كل مرة نجد هذا النجم يبحث عما يمكن أن يدغدغ الجمهور ويثير حماسه، يزايد على المواقف، ويعلو الصوت ويتحشرج أحياناً، وعينه على المتلقي، فالنجم التلفزيوني يعلم أين مناطق الاشتعال والحماسة لدى المتلقي، فيتخلى عن رزانته وحياده وعلمه وقدرته على التحليل ليضغط بكل ما أوتي من قوة صوت ظناً منه أنه يكسب بذلك تعاطف المتلقي حتى لو تناقض ذلك مع حقائق الأمور. وتكون النتيجة المزيد من الغرق في أوهام قوة، أو انتقام أو تلبس حالة غير حقيقية لا تكون نتيجتها إلا غيبوبة سوف يدفع ثمنها الوطن كله. وعندما يأتي الوقت الذي يفيق فيه المتلقون على الحقيقة المرة، وحالة الوهم التي عاشوها، ساعتها لن يفيد كثيراً ذلك الهتاف الشهير الذي تضج به جنبات العديد من دور السينما عندما يكتشف المتفرجون أنهم قد تعرضوا لخدعة كبيرة فتهتز قاعة العرض بأصوات غاضبة «سينما أونطة هاتوا فلوسنا».

* * * *

(٤)

صحافة غرف النوم

تراجعت تفاصيل قضية حسام أبو الفتوح رجل الأعمال المصري المليئة بتفاصيل عدة، ليتركز الاهتمام عند شريط الفيديو «الحميم» وعلاقة أبو الفتوح بالراقصة دينا، وهل صحيح انهما تزوجا أم لا؟

وفي قضية يوسف عبد الرحمن وكيل وزارة الزراعة السابق والمتهم بإدخال مبيدات سامة تهدد حياة المصريين بأمراض سرطانية، تراجعت الكثير من تفاصيل القضية المهمة أمام تلميحات عن طبيعة العلاقة بينه وبين إحدى مساعداته.

وهكذا في العديد من القضايا التي اصطلح على تسميتها قضايا «رأي عام»، تتوارى في أحيان كثيرة القضايا الأساسية أمام تفاصيل فضائحية تمتلك عناصر إثارة لمجرد الإثارة، وهكذا نجد متهما بتبديد مئات الملايين من قروض البنوك، لا تذكر له بعض الصحف سوى علاقاته النسائية صحت أو لم تصح، وتتراجع اتهامات مسؤول باستغلال منصبه للتربح، لتركز الصحف ذاتها على الملابس النسائية الداخلية ووجود قطعة حشيش في مكتبه، وهكذا ننسى أو نتناسى، وتختفي أو يتم إخفاء المسائل الأساسية في تلك القضايا أمام موضوعات تتلون بألوان غرف النوم وتتعطر بدخان المخدرات.

لست ميالاً لتبني التفسير التآمري الذي يفسر ذلك النوع من التركيز على تلك الموضوعات بأنه محاولة لتشكيل الوعي الجماعي في اتجاه، أو صرف

اهتمام الرأي العام نحو صغائر الأمور، ولست مع القائلين بأن الغرض من هذا التركيز هو صرف أنظار المجتمع عن قضاياه الأساسية أو عن العناصر المهمة في تلك القضايا والمرتبطة في الغالب بقضايا فساد وقضايا اقتصادية أو سياسية وشغله في تفاصيل إثارة.

لست ميالاً لتلك التفسيرات التي تعتمد نظرية المؤامرة منهجاً للتفكير حتى ولو كانت تمتلك مقدمات أو دلائل ذات وجاهة.

قراءة سريعة للعناوين الرئيسية ــ وحتى الفرعية ــ لمثل هذه الصحف، التي تنهج هذا المنهج، تساعدنا في الوصول إلى تفسير الحالة التي نحن بصددها.

تختلف هذه الصحف في أسمائها ولكن عناصر ثابتة تشترك فيها ــ أو عناوينها وموضوعاتها ــ وبعضها مثل «فضيحة» «فنانة في فراش مسؤول»، «اعتداء جنسي»، «رشوة جنسية» وغيرها من التعبيرات، وحتى الموضوعات ذات الصبغة السياسية لا تخلو من مثل هذه التلميحات أو الصور، ولا تقف حدود المشكلة عند مثل هذه الصحف الصغيرة، ولكن تتخطاها عندما تغري بعضاً من الصحف الرصينة إلى الانسياق في ذات الاتجاه ظنا بأنه الطريق لكسب القراء ــ عملا بمبدأ «الجمهور عاوز كده». وهكذا وبسبب هذا التناول المبتسر والخاطئ للعديد من القضايا في مثل تلك الصحف تتراجع العناصر المهمة في هذه القضايا أمام الإثارة الرخيصة.

حل مثل هذه المشكلة لا يتأتى بتشديد القوانين أو البحث عن المزيد من القيود، وأيضا لن يجدي التفسير التآمري لتغييب وعي الأمة، ولكن في ظني فإن إلغاء القيود على إصدار الصحف سوف يتيح الفرصة لخلق حالة من التوازن بين الصحافة الجادة، وتلك الباحثة عن الإثارة، ليكون الغرض الوصول إلى الحقائق العارية، لا تعرية ما لا يجب تعريته بلا هدف إلا الإثارة .

(٥)

أكياس الرمال

معدلات التغير في العالم أسرع كثيراً ــ للأسف ــ من قدرتنا على التكيف ومجاراة هذه المعدلات العالية، ولن أتحدث اليوم عن تلك الطفرات العلمية والاقتصادية وأستحضر حالنا فيها، ولكن ما أتناوله اليوم هو ذلك التطور الكبير في مجال الإعلام، ولا أقصد هنا فقط التطور التكنولوجي الهائل الذي نلمسه كل لحظة كمتلقين ــ وبالمناسبة هو أيضاً أمر لا نملك صناعته لذا نكتفي بشرائه ــ ولكن أقصد التطور الحادث في حركة الإعلام وامتداده إلى داخلنا من الخارج في محاولة لإعادة تفكيك وتركيب العقل العربي وفقاً لأجواء العالم الجديد، والذي كان يسمى فيما قبل العولمة، والآن أصبح الاسم الأكثر لياقة له هو عالم ما بعد ١١ سبتمبر وما بعد إسقاط صدام وغزو العراق. المرحلة الجديدة من التأثير الوافد علينا تتمثل في محاولة فتح مساحة من الديمقراطية والحرية بمفاهيمها الغربية ــ بل الأمريكية ــ والتي لا تصب في النهاية أيضاً إلا في صالح أصحاب هذه المفاهيم. وخطورة هذا التطور أو التغير أنه لا يأتي بأيدينا، بل يأتي من الخارج وبأيدي بعضنا، ويقف المسؤولون عن صناعة الرأي العام في العالم العربي إما مسلماً بما يحدث وإما مغمضاً عينيه عما يحدث، أو مقتنعاً بأنه فوق هذه المؤثرات التي لن تهز منه ومن إعلامه الراسخ شعرة. مناسبة هذا الحديث هو ذلك المشروع الأمريكي الجديد الذي تبحث فيه واشنطن إصدار صحف وإنشاء محطات تلفزيون

عربية، هذا بالطبع غير محطة التلفزيون المزمع إنشاؤها، والجديد هنا هو دخول أمريكا بهدف «اعادة هيكلة الصحافة العربية .. الوحيدة القادرة على خلق مجتمعات مفتوحة وديمقراطية على النهج الأمريكي»، وفقاً لما نسب لأصحاب هذا المشروع، ولخروج وسائل إعلام عربية جديدة مستقلة عن التأثير الحكومي. هذه الملامح من التغيرات القادمة تبدو في شكلها وكأنها فيضان قادم، لا ينبغي الوقوف أمامه متفرجين، مقتنعين بأنه «يا جبل ما يهزك ريح»، بل الطريق الصحيح الوحيد ــ مرة أخرى ــ هو أن نغير نحن بأيدينا، ما ينبغي أن نغيره، هاجمنا جميعاً ــ أو معظمنا ــ ما اصطلح على تسميته مبادرة كولن باول، ولكن جميعنا ــ أو معظمنا ــ مقتنع في داخله بصحة الكثير مما ذكره من نواقص وعيوب في مجتمعاتنا، وبالتالي ليس أمامنا إلا مواجهة هذه المشكلات وحلها. في مجال الإعلام لن يكون الحل بمجرد فتح بعض القنوات وتوسيع الهامش نسبياً لبعض الآراء والبرامج أو الصحف، لأنها لن تكون كافية وحدها لصد الفيضان القادم، لن تكون هذه المساحات المفتوحة نسبياً وهذه الحرية النسبية إلا أشبه بأكياس الرمل التي توضع في مواجهة الفيضان، وهذه الأكياس لن تكفي إلا لتأخير حدوثه ولكنها لن تمنع من مواجهة الفيضان التى تكون إلا باجراءات مغايرة ومتناسبة مع قوته، وهذا الفيضان القادم لن نتمكن من صده إلا بالمزيد من الحرية الحقيقية النابعة من داخل مجتمعاتنا وبأيدينا، حرية في التعبير في إصدار الصحف وفي إطلاق محطات تلفزيون ترعاها أنظمتنا ولا تحاربها ولا تفرض عليها سيطرتها أو توجهاتها، ومهما أضفنا من أكياس رمل فإنها لن تكون إلاَّ حلولاً وقتية ولن تملك إلا أن تنفرط أمام قوة القادم.

* * * *

المثقف العربي بين السلطة والشارع

«لم يصل المثقفون العرب المعروفون إلى مناصبهم بفضل علمهم ومعرفتهم، ولكن بفضل علاقتهم مع السلطة، وهو الامر الذي ادى إلى انهيار المعرفة وتدني مستوى الحريات على مستوى الوطن العربي». هذا هو الاتهام الذي حمله تقرير التنمية البشرية الثاني.

ويستمر التقرير في اتهامه للمثقفين العرب عندما يقول: «إنه لوحظ على المثقفين العرب الذين تمكنوا من الوصول إلى دائرة صنع القرار انهم قد تمكنوا من ذلك لا بفضل علمهم واستقلالهم الفكري، بل بسبب مهارتهم في التغلغل والانخراط في السلطة السياسية، وهو الامر الذي جعل الحكومات والسلطات على مستوى الوطن العربي تقوم بتهميشهم وتجاهلهم عندما تحتاج إلى مشورة جادة بشأن الخيارات السياسية، والسبب في هذا التجاهل يعود إلى تفريط المثقفين في استقلالية المجال المعرفي والرضوخ إلى هيمنة الأنظمة السياسية وسيطرة النزعة التبريرية من تلك النخبة لإثبات شرعية السلطات القائمة».

هذه زاوية من صورة المثقف العربي وعلاقته بالسلطة وهي مع شديد الأسف صورة فيها الكثير من الواقعية والحقيقة الصادمة. زاوية اخرى من الصورة قدمها لنا الروائي المصري المعروف صنع الله إبراهيم، عندما رفض جائزة الرواية العربية التي منحت له في نهاية ملتقى القاهرة الثاني للرواية العربية أواخر شهر أكتوبر٢٠٠٣، مبررا رفضه للجائزة ــ بعد مقدمة عن الاوضاع العربية والمصرية ــ بأنه يعتذر عن عدم قبول الجائزة لانها صادرة عن حكومة لا تملك مصداقية منحها. ولست أدري إذا ما كان صنع الله إبراهيم يقصر كلمته فقط على الحكومة المصرية أم أنها تمتد إلى حكومات أخرى قد يقبل أو قبل منها جائزة؟!

الزاوية الاولى من الصورة، التي قدمها تقرير التنمية البشرية تقدم حالة المثقف الذي اختار أن يلعب دور خادم السلطان وأدرك السلطان حجمه وحقيقته فعزله عن دوائر الفعل، وقربه من دوائر الاستفادة، لكن ظل المثقف في هذه الحالة خادما طيعا، باحثا عن فتات على حساب أحلام شعب وأمة، وهنا يكون المثقف قد خان الجماهير التي وثقت فيه ووضعت عليه آمالا، ويكون أيضا قد استغل هذه الجماهير لكي يصعد على أكتافها ــ أو جثثها ــ ليحقق لنفسه طموحا شخصيا محدودا وضيقا، ويرضى بدور خادم السلطان وهذا النموذج حاضر بيننا ويمكننا ببساطة أن نشير إليهم واستطيع أن أجزم أن كلا منا وهو يقرأ هذا الكلام يستحضر في ذهنه أسماء هو يعرفها.

والزاوية الثانية من الصورة يصورها صنع الله إبراهيم بموقفه، وهو هنا تعبير عن تيار حاضر بين المثقفين العرب الذين اختاروا موقف الطرف الآخر من السلطان، وكاد يكون في موقع المواجهة، وهنا تسود حالة العداء بين الطرفين والنتيجة ايضا ان يستبعد المثقف عن دائرة الفعل والتأثير والمشاركة من قبل السلطة وتخسر هنا كل الاطراف مرة أخرى.

في كلتا الحالتين تتحمل السلطة والمثقف المسؤولية، سواء في حالة الاستخدام او حالة الاستعداء، فالسلطة ــ اي سلطة ــ التي تستخدم الأساليب التي تهدف بها إلى تغييب دور المثقف وذلك بشرائه لن تكسب في النهاية الا خدما وغلمانا وايضا المثقف الذي يرضى بهذا الهوان ليس الا خائنا لامانة ما اؤتمن عليه، كذلك الحال بالنسبة لحالة الاستعداء التي لن يدفع ثمنها الا الوطن كله.

العلاقة بين المثقف والسلطة ينبغي أن تكون علاقة متوازنة علاقة حوار، علاقة تأثير وتأثر متبادلين، ليست العلاقة التي نشهد ملامحها الآن، والتي بات من نتيجتها أن المثقف غاب عن قيادة الشارع، إن لم يكن قد طرد منه بالفعل، وبات المثقفون منقسمين بين صنفين أساسيين، إما خدما للسلطان أو أعداء له، وضاع بين الصنفين الصنف الثالث القادر على حمل مشاعل التنوير وانهاء حالة العداء والاستخدام السائدة بين المثقف والسلطة.

حكاية حوار مع الدكتور عاطف عبيد

حكاية إجراء حوار مع الدكتور عاطف عبيد رئيس الوزراء المصري تعد نموذجا جديرا بالدراسة حول أسلوب تعامل المسؤولين العرب مع وسائل الإعلام. كان مقررا أن أبدأ إجازتي في اليوم التالي عندما تلقيت اتصالا لإبلاغي بأن موعدا قد تحدد لي مع الدكتور عاطف عبيد، رئيس الوزراء المصري، في مقر رئاسة الوزراء لاجراء حوار صحافي معه. بعدها بقليل تلقيت مكالمة أخرى تطلب الأسئلة التي سوف أوجهها لرئيس الوزراء لكي يطلع عليها قبل الحوار. شرحت لمحدثي على الطرف الآخر أنني لا أضع صيغة لأسئلة مسبقا، لكني أعمل من خلال محاور للحوار معتمدا في إدارته على التفاعل مع الطرف الآخر، فطلب أن أرسل لهم عبر الفاكس المحاور الأساسية للحوار، وهذا ما فعلت.

تجاوزت الإحباط الذي أصاب أولادي لتأجيل بدء إجازتهم التي انتظروها منذ فترة، وذهبت إلى مقر مجلس الوزراء بوسط القاهرة في الموعد الذي كان قد تأجل لمدة ساعتين لانشغال رئيس الوزراء باجتماع وزاري.

انتظرت قليلا في صالون أنيق في رئاسة مجلس الوزراء، تزين سقف قاعته لوحة فنية يبدو أنها لفنان فرنسي من مطلع القرن الماضي، ولوحة من السجاد تحمل صورة الرئيس حسني مبارك.

خرجت مجموعة من الوزراء إلى الصالون الملحق بمكتب الدكتور عبيد، وكان هذا علامة على أن الاجتماع الوزاري المصغر قد انتهى، ودخلت إلى مكتب الرئيس الذي استقبلني بابتسامة عريضة، ولمحت على الطاولة التي

أمامه صورة الفاكس الذي أرسلته يحمل محاور الحوار، ولاحظت وجود عدة نقاط تم تحديدها بلون مختلف.

تحدث الدكتورعبيد في البداية عن علاقته بـ«الشرق الأوسط» التي يقرأها يوميا منذ أكثر من عشرين عاما، لكنه عاتب عليها لأنها تتناول الموضوعات المصرية بصورة سلبية. أكدت له أن الموضوعية هي الأساس في عملنا، وأن أي نقص في المعلومات تتحمله المصادر الرسمية التي تجعل من مهمة الإعلام عملا إما مستحيلا، أو فاترا، أو دعائيا.

انتقل الدكتور عبيد إلى موضوع الحوار وأشار إلى الورقة التي أمامه، وقال ما معناه ان هذه الأسئلة أو المحاور تحمل في معظمها أسئلة سلبية ومحلية، وانه كرئيس وزراء لمصر لا ينبغي أن يكون الحوار معه كله في هذا الاطار السلبي، وأن الاسئلة ينبغي أن تقف عند حدود التساؤلات، وتترك له كرئيس وزراء حرية الاجابة بالشكل الذي يراه مناسبا، إضافة إلى أنه يعتقد ان اجاباته ينبغي ان تكون إجابات مكتوبة لأنه مسؤول عما يقول ولا ينبغي أن يسمح بترك إجابات قد لا تكون دقيقة. اعترضت على ما طرحه رئيس الحكومة، وذكرته بحوار سابق أدرته معه في المكتب ذاته، وكان حوارا حيويا وإيجابيا ومباشرا.

أصر الدكتورعبيد على وجهة نظره، مضيفا أنه لا ينبغي أن يظهر رئيس وزراء مصر في صحيفة عربية ولا يتحدث عن الشأن العربي أو أن يطرح وجهات نظر ذات بعد عربي، وأنه ينبغي ألا يغرق في التفاصيل المحلية، وأن يبدو توجه الحوار بشكل عام سلبياً.

أجبت الدكتور عبيد، الذي استقبل المناقشة بصدر رحب، بأنني أقدر تماما رغبة رئيس وزراء مصر في أن يراه القراء في صورة إيجابية، ولكن في ذات الوقت لا يرضيه أن يظهر هو في الصورة التي يريدها وأن أبدو أنا أمام القراء في صورة الصحفي الذي لا يعرف كيف يدير حوارا، وأضفت أنه لا

يمكن أن يجري أي صحفي حوارا مع رئيس وزراء مصر، ولا يسأله مثلا عن انفلات سعر العملة، أو عن الاتهامات التي وجهها زوليك في المؤتمر الاقتصادي الأخير في عمان حول إنسحاب شركات أميركية بسبب أجواء الاستثمار في مصر. جاء الرد هادئا بأنه يفضل أن يكون الحوار من خلال أسئلة مكتوبة ذات محاور عربية وأن تكون أسئلة استفهامية عامة وأن يتناول هو في اطار اجاباته النقاط التي سوف تغطي بالتأكيد ما أريد معرفته من نقاط سلبية من دون ان أضعها في شكل سؤال. واقترحت في النهاية أن أضع أسئلة مكتوبة تحتوي كل النقاط والأسئلة التي أرغب في توجيهها لرئيس وزراء مصر سلبية وإيجابية، وأن أترك له حرية الإجابة عما يريد.

استمر الحوار أقل من ساعة بقليل، وتناول الدكتور عبيد بالشرح والرد العديد من النقاط الخاصة بالاستثمار وأجوائه وأسعار العملة، وازدياد حجم الاستثمار والتسهيلات المقدمة، وبدا متفائلا بالمستقبل، وأجاب عن العديد من الأسئلة، كل هذا في إطار «الدردشة» وليس الحوار بغرض النشر، وانتهى اللقاء بعد أن أتى المصور والتقط بعض الصور له لاستخدامها في الحوار الذي سوف يجيب عنه كتابة كما طلب.

وأرسلت الأسئلة في اليوم التالي، وكانت حوالي ٣٠ سؤالا تغطي ما رأيت أهمية الحوار حوله. وانتظرت الإجابة عنها، وبدأنا محاولات الاتصال بمكتب الدكتور عبيد، أو أي من مساعديه، وهي المحاولات التي باءت جميعها بالفشل، واستخدمنا كل الوسائل الإلكترونية والهاتفية والبشرية، لكننا فشلنا في الوصول إلى إجابة، بل حتى إلى تواصل. وها نحن لا نزال في انتظارالاجابة ، وقد مرت الذكرى الشهرية الأولى على اللقاء.. واقتربت الثانية .

ثقافة (اليوم التالي)

«احييني النهاردة وموتني بكرة»، هذا هو أحد الأمثال الشعبية المصرية، والتي أظن أن لها مثيلا أو معادلا لدى كل شعوبنا العربية، من المحيط الهادر حتى الخليج الثائر. وبالتدقيق في مفهوم مثل هذا القول الشائع نستطيع أن نتلمس أحد أهم المشكلات، أو لنقل الأمراض، التي تميز الشخصية العربية. وهذه المشكلة ــ أو هذا المرض ــ يتمثل في أننا دائماً عاجزون أو غير راغبين في تحديد خطواتنا التالية لما بعد اليوم. بشكل آخر فاننا دوماً نترك أنفسنا في موقع رد الفعل، لا نحاول أن نخطط سيناريوهات مختلفة للأحداث التي نواجهها أو قد نواجهها. أي أننا لا نملك سيناريوهات مختلفة لحياتنا، ولا نمتلك بدائل متعددة، ولكن ننتظر حتى يقع الحدث سواء كان الحدث سلبياً أو إيجابياً، وبعدها نقرر ماذا نحن فاعلون.

هذا النمط من التفكير ليس حكراً على القيادات في مختلف المجالات، ولكنه أسلوب حياة اخترنا أن نعيشه، ابتداء من أصغر خلية في المجتمع، التي تبدأ من الشخص منفرداً، إلى الأسرة إلى العائلة أو القبيلة، وحتى أعلى مستوى في المجتمع. نحن في حياتنا لا نطرح السؤال البسيط المهم «وبعدين؟» أو «وماذا بعد؟»، أي ماذا بعد أن نختار أن نقوم بفعل ما، أو ماذا بعد أن يقع حدث ما؟ ما الذي يمكن أن يحدث وكيف يمكن أن نتعامل مع المتغيرات. نحن كأسرة نقرر أن نخرج من المنزل ولكن لا نعلم وجهتنا ولا ماذا نحن فاعلون، وإلى أين نحن متجهون، نكتشف فجأة أن شهر رمضان

يبدأ في اليوم التالي وكأننا لا نعلم بقدومه منذ ١١ شهراً. بعضنا يخرج في مظاهرات حاشدة، ولكن لا يحدد ماذا يريد من التظاهرة، وماهي الخطوة التالية لها، وكيف يمكن البناء عليها والاستفادة منها. نطالب باتخاذ مواقف مثل المقاطعة مثلاً، ولكن لا نحدد، بعد أن نتخذ هذا الموقف، ما هي الخطوة التالية وكيف يمكن الاستفادة من رفع شعار جذاب يمكن أن يكون سلاحاً ذا حدين. وهكذا ترتفع مستويات الفعل والحدث ورد الفعل المقابل حتى تصل إلى المستويات الأعلى، فلا نعرف ماذا نحن فاعلون تجاه العراق الآن، وماذا نحن فاعلون إذا ما سقط النظام هناك، ولا نعرف ماذا نحن فاعلون إذا ما وقعت الحرب، ما هي خطواتنا التالية، وكيف نواجه مرحلة ما بعد الحرب.

إن ما نفتقد إليه هو ما أسميه ثقافة «اليوم التالي» أي ثقافة الاستعداد لمواجهة مختلف الاحتمالات بردود فعل مناسبة لهذه الاحتمالات. وهذا العيب، كما ذكرت في البداية، ليس عيباً تنفرد به القيادات على مختلف المستويات، وليس عيباً تنفرد به السياسات العامة، بل عيب كامن في تكويننا كأفراد وكأسر وجماعات، ولذلك يتسرب ذات العيب حتى أعلى المستويات.

إذا ما بدأنا كأشخاص نعرف ماذا نحن فاعلون بعد أن ننتهي من قراءة هذه الجريدة، فالأكيد أننا نضع أقدامنا على أول طريق المعرفة.

* * * *

وكأن عمرا لم يمر

منذ أكثر من عشرين عاما سرى بيننا صوت بدا غريبا عن الموجة التي كانت سائدة في تلك الفترة، وسمعنا كلمات وتعبيرات لم تكن مألوفة في كلمات الأغنيات التي كنا نسمعها ونستعيرها وننسخها من بعضنا البعض، لأننا كنا في ذات الوقت طلبة في الجامعة، وكان النسخ وسيلتنا الاقتصادية لنستطيع أن نكتنز أكبر مجموعة ممكنة من شرائط كاسيت فيروز والشيخ إمام وعزة بلبع وبوب مارلي ووصلات أم كلثوم، ووطنيات وحب عبد الحليم، وما كانت تطوله أيدينا من قصائد مظفر النواب وعفيفي مطر، وتسلل وقتها بين هذه المجموعة صوت على رقته حمل من المعاني أقواها، وعلى خجله حمل من المشاعر أجملها. لم يكن محمد منير وسيما بمفهوم الفتى الأول الذي رسمته لدينا سينمانا العربية في أى وقت، ولا أذكر أنني رأيته يوما يرتدي ربطة عنق، ولا أظن أن هناك من رآه، ولكنه استطاع أن يكون أكثر المغنين في تلك الفترة وسامة ــ أو هكذا رأيناه ــ بما حملت أغنياته من معان. «قول للغريب دربك هنا»، «يا عروسة النيل» و«أمانة يا بحر». وتحول منير منذ تلك الفترة وحتى الآن إلى فنان يعتقد معظم من يحبونه إنه يعبر عنهم، وطوال الأعوام العشرين ظهرت أصوات جديدة اكتسحت الساحة لأسابيع أو أشهر أو أعوام، وكان يتوارى الجميع أمام هذا الاكتساح الجديد لفترة، وظهرت نجوم وأفلت نجوم أخرى، وطوال هذه الفترة ظل منير مستمر بهدوء ولكن برسوخ يذكر بانسياب مياه النيل من النوبة إلى البحر. مر الفتى النوبي منير بمراحل متعددة في الأعوام العشرين، تعثرت تجارب ونجحت تجارب أخرى، ولكن كل الفترة لم يتوقف عن المحاولة، محاولة تكوين مشروع غنائي، ليكون المشروع الأول بعد غياب عبد الحليم حافظ.

وبعد غياب خرج منير أخيرا بألبومه الذي اختار له اسم «في عشق البنات» وفي هذه المجموعة يخرج منير بمشروعه الجديد تقريبا في ملامحه النهائية، هو مشروع ــ كما فهمته كمستمع ــ يريد أن يؤكد من خلاله على قدرة التراث الموسيقى العربي على التجديد، بل التجدد، ولا يعتمد هذا إلا على فهم من يقدمونه لقدرات هذا الموروث الفولكلوري الموسيقي، وعلى القدرة على استيعاب هذا الموروث وهضمه والتعامل معه بعقلية وتكنولوجيا القرن الواحد والعشرين، والأهم من ذلك كل الإيمان بقدرات هذا الموروث، استطعت أن أرى شقاوة الفتى الصعيدي أو النوبي وهو يركض في شوارع قريته في أغنية «في عشق البنات» التي يقول مطلعها «نعناع الجنينة المسقي في حيضانه، شجر الموز طرح ضلل على عيدانه»، وبات من المعتاد لكل من يسير في شوارع مصر الآن أن يسمع منير وهو يتغنى «في عشق البنات أنا فقت نابليون» بلهجة نوبية وإيقاع فولكلوري جميل ليس غريبا عن مستمع قرن جديد. ويستمر منير في تقديم بل في تحديث القديم باغنية «يا طير يا طاير» ثم يعود ليداعب ذكرياتنا بأغنية عبد الرحيم منصور التي غنتها نجاة في مطلع الثمانينات من ألحان هاني شنودة «أنا باعشق البحر» وكأنه أراد أن يوجه تحية لعبد الرحيم منصور، وعندما يغني أغنية «خايف أوعدك ما أوفيش» فإنه أيضا أراد أن يؤكد قدرته على تقديم الشكل السائد الآن ولكن في مستوى جميل، وينهي منير مجموعته ــ بل مشروعه الجديد ــ بأغنية «ربك لما يريد» التي تحمل قدرا من القوة والتسليم في ذات الوقت. ويستمر سريان صوت منير فنيا، وكأن عشرين عاما لم تمر.

* * * *